التوكل على الله

أما التوكل على الله فإن المسلمين الأوائل قد فهموا حق الفهم "وتوكلوا على الله حق التوكل" ولذلك قاموا بعظائم الأمور. واقتحموا أشد العقاب، بخلاف المسلمين المتأخرين ولا سيما حين طغى على الأنفس طغيان المادة، وأصيب المسلمون بقصر النظر، وضعف الفهم، فإنهم بعدوا عن فهم حقيقة التوكل، فصار عبارة من كلمات جوفاء لا واقع لها في حياتهم، ولا في أذهانهم، وقد ساعد على هذا ما انصب عليه تفكير أهل العلم من تفسير التوكل بأنه الأخذ بالأسباب وصارت حين تطلق كلمة التوكل مرادفها فور الحديث الشريف "أعقلها وتوكل" فصار الحديث يستعمل لإضعاف معنى التوكل في النفوس لا لدفع ما يتوهم من التوكل بأنه ترك الأخذ بالأسباب، أي لجعله جزئا من التوكل، وليس طريقة منفصلة عنه، فكان من نتيجة ذلك أن انحطت الهمم، وضعفت العزائم، وضاق الأفق في النظرة إلى الحياة، فصاروا يحسون بالعجز، ويعتقدون إن قدرتهم محدودة، وإنهم لا يستطيعون إلا ما استطاعوا تحقيقه، و لهذا لن يرجع المسلمون إلى اعتقاد النوى المجد، والاندفاع في الحياة لتحقيق المعالي، إلا إذا فهم التوكل على الله حق الفهم وتوكلوا على الله حق توكله، فإن عظائم الأمور لا يمكن أن يحققها الرجال إذا حددوا قدرتهم بقواهم الإنسانية وحدها، فإن هذه القوى الإنسانية إذا نظر الإنسان إليها وحدها وعمل بمقدار نظرته هذه قصرت باعه حتى عن تحقيق الأمور العادية فضلا عن الأمور الغير العادية، ولكن إذا آمن الرجال إن هناك قوى وراء الإنسان تساعده على تحقيق غاياته فإنه و لا شك يندفع إلى ما هو أكبر من قوته معتمدا على تلك القوى. وقوى الإنسان إذا نظر إليها وجدها ترى أنها محدودة، فيحد الإنسان بهذه النظرة أعماله، ولكنه إذا نظر إليها نظرة أوسع فإنه يجد أنه لا حد لها، فالإنسان يستطيع أن يحقق عظائم الأمور، ويستطيع أن يقوم بما لا يتصور إمكانه قبل القيام به، فقدرة الإنسان لا حد لها إذا اعتقد أن هناك قوة وراء قوة تساعده على تحقيق ما يسعى إليه، وحتى اللذين لا يؤمنون بالله و لا يتوكلون عليه يؤمنون بأن هناك قوة وراء قواهم، يفسرونها بالطبيعة وبغير ذلك، يندمون على عظائم الأمور، فكيف بالمسلم وهو يؤمن بالله عن دليل قاطع، ويصدق بوجود الله تصديقا جازما مطابقا للواقع عن دليل، فإنه ولا شك يحقق بتوكله على الله إضعاف ما يحققه غير المسلمين، ومن هنا كان التوكل على الله من أعظم مقومات الأمة الإسلامية ومن أهم أفكار الإسلام.

والتوكل على الله ثابت بنص القرآن القطعي، قال الله تعالى :" إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون."(سورة آل عمران، آية: ١٦٠) وقال تعالى:" فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين." (سورة آل عمران، آية: ١٥٩) وقال تعالى:" قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون." (سورة التوبة، آية: ٥١) وقال تعالى:" فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم." (سورة التوبة، آية: ١٢٩) وقال تعالى:" قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون." (سورة الزمر، آية: ٣٨) وقال تعالى:" ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم." (سورة الأنفال، آية: ٤٩) وقال تعالى:" ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا." (سورة الطلاق، آية: ٣) وقال تعالى:" إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون." (سورة الأنفال، آية: ٢) وقال تعالى:" ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون." (سورة هود، آية: ١٢٣) وقال تعالى:"واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين(٢١٥)فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون(٢١٦)وتوكل على العزيز الرحيم." (سورة الشعراء، آية: ٢١٧) فهذه الآيات قطعية الدلالة على وجوب التوكل على الله فإنها أمر صريح بالتوكل على الله، واقترنت بقرينة تدل على الجزم، وهي مدحه تعالى للمتوكلين وكونه يحبهم. وقد وردت أحاديث كثيرة كذلك صريحة في الدلالة على التوكل. روى البخاري عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" يدخلون الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب هم الذين يسترقون لا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون." وروى أحمد والترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتعود بطانا." وهذه الأدلة لا تدع مجالا لمسلم إن يتردد في التوكل لحظة لأنها أدلة صريحة. لا سيما وإن آيات القرآن أدلة قطعية يكفر منكرها مما يجعل التوكل على الله أمرا من أوجب الواجبات على المسلمين. وطلب التوكل على الله في هذه الأدلة كلها لم يأت مقرونا بشرط، ولا مشروطا فيه عمل من الأعمال، بل جاءت أدلة مطلقة في طلب التوكل، فيكون الواجب هو التوكل على الله بشكل مطلق، ففي كل أمر من الأمور، ففي كل عمل من الأعمال، يجب أن نتوكل على الله، ولا تدل على غير ذلك، ولا يوجد دليل آخر يقيدها بأي قيد، بل هي مطلقة، فالتوكل على الله واجب على كل مسلم وجوبا مطلقا دون أي قيد ومن غير أي شرط.

وأما حديث "أعقلها وتوكل" فإنه ليس قيدا لهذه الآيات والأحاديث، حتى ولا بيانا لها، فإنها غير مجملة حتى تحتاج إلى بيان، وإنما هو في موضوع آخر هو الأخذ بالأسباب والمسببات، فعلمه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتوكل لا يعني ترك الأسباب والمسببات، فهو لم يأت

ناسخا لأدلة الأخذ الأسباب والمسببات، بل هو شيء آخر غيرها، فأمره بالأخذ بالأسباب والمسببات مع التوكل، فإن الحديث :" أن رجلا جاء النبي صلى الله عليه وسلم وأراد أن يترك ناقته فقال أرسل ناقتي و أتوكل، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم "أعقلها وتوكل" فهو تعليم للأعرابي أن يعقل ناقته أي أن يأخذ بالأسباب والمسببات، وتفهيم له أن التوكل لا ينفي الأخذ بالأسباب والمسببات، وأمر له بالأخذ بالأسباب والمسببات، وبالتوكل ولهذا لم يكن قيدا لأدلة التوكل ولا بوجه من الوجوه. وبذلك يكون التوكل على الله فرضا بغض النظر عن الأسباب والمسببات وهي ليست قيدا له ولا بيانا لحكمه، لأن أدلته جاءت مطلقة غير مقيدة، ولم تقيد بنص من النصوص، ولأن أدلته ليست مجملة حتى تحتاج إلى بيان، ومسألة الأخذ بالأسباب والمسببات مسألة أخرى غير مسألة التوكل، فهي مسألة ثانية غير التوكل، وأدلتها غير أدلة التوكل فلا يصح أن تحشر معه أو تجعل قيدا له. فكما يجب على المسلمين أن يأخذوا بالأسباب والمسببات كما ثبت ذلك بالأدلة الشرعية كذلك يجب عليهم أن يتوكلوا على الله تعالى كما ثبت ذلك بالأدلة الشرعية، وليس أحدهما بقيد للآخر، ولا شرطا من شروطه.

ولهذا يجب على المسلمين أن يتوكلوا على الله توكلا مطلقا، ومن لم يتوكل على الله فهو آثم، ومن ينكر التوكل على الله فهو كافر، لأن التوكل على الله قد ثبت بالدليل القطعي الثبوت القطعي الدلالة. وأنه وإن كان لا يوجد في المسلمين من المؤمنين بالإسلام من ينكر التوكل فإن جمهرتهم تفهم التوكل فهما مغلوطا، تفهمه أعمل وتوكل، ولكنه في حقيقته ليس كذلك بل هو توكل وأعمل، وفرق شاسع بين الفهمين، ففهم أعمل وتوكل يجعل التوكل أمرا شكليا، ولذلك لا اثر له في نفس العامل الذي يزعم أنه توكل، ولكن فهم توكل وأعمل يجعل التوكل أساسا فيكون له في النفس الأثر الكبير ويجعل فيها قوة غير عادية قادرة على الاضطلاع بالمهام العظام. والله أعلم بالصواب.